المحاضرة الثالثة

اللغة الآرامية في العصر الفرثي

بعد ان بسط الفرس الفرثيون سلطتهم على العراق وقضوا على الحكم السلوقي في سنة ١٢٦ ق. م. ، اتخذوا الخط الآرامي لكتابة لغتهم ، وقد عثر على نقود فرثية كتبت عليها كلمات فهلوية بخط آرامي ، مثل نقود مهرداد الرابع وبلاش الاول والثالث والرابع والخامس واردوان الخامس ، وعثر ايضا على نسخة مكتوبة باللغة الفهلوية وبخط آرامي .

وفي عهد الفرثيين ظهرت ممالك مستقلة في بلاد الرافدين، إلا أنها كانت خاضعة لنفوذهم، كمملكة الحضر، التي تقع بقاياها في البادية الواسعة في مابين النهرين ، على بعد نحو ٣ كم عن الضفة الغربية من وادي الثرثار. وقد كان سكان هذه المملكة خليطا من الآراميين والعرب، ويبدو أن القبائل العربية كانت تشكل غالبية سكانها لهذا كان يطلق عليها اسم (عربايا) ، او ربما لأن ملوكها كانوا من اصل عربي ، ومع هذا فقد اشتهرت مملكة الحضر بأنها فرثية لأن قوتها وصيتها الواسع عُرفا في العهد الفرثي .

وقد كشفت لنا التنقيبات في الحضر منذ عام ١٩٥٠ كتابات حضرية مكتوبة بلغة آرامية، بلغ عدد ما نشر منها ٤١٦ كتابة ، كما اكتشف ما يزيد على أربعين كتابة أخرى، وقد تبين من خلال هذه الكتابات أن لغة الكتابة في الحضر من اللهجات الآرامية الشرقية بحكم موقعها وخصائصها اللغوية.

ومن الممالك الأخرى التي ظهرت في العهد الفرثي ايضا مملكة أوسروينا (الرها) . وتقع هذه المملكة في شمالي مابين النهرين ، يحدها غربًا نهر الفرات وشمالاً جبال أرمينيا وجنوبًا الصحراء وشرقًا نصيبين وعاصمتها الرها (اورهاي) ، وسماها الإغريق (ادسا). وكان سكانها يستخدمون السريانية وهي من اللهجات الآرامية الشرقية وتعرف بسريانية الرها ، وقد أدّت لعبت السريانية دوراً مهماً في الشرق بأسره يضاهي الدور الذي لعبته الآرامية في العهد الأخميني.

عثر على الآثار الكتابية الأولى لسريانية الرها في مناطق مختلفة، أهمها الرها وضواحيها ودورا على الساحل الغربي من نهر الفرات وبيرتا وسدين في تركيا ، وقرب مدينة حماة السوريّة وحتى في القدس ، ويرتقي تاريخ بعضها إلى القرن الأول الميلادي ، كنقش عثر عليه في بيرجيك يرقى تاريخ كتابته إلى سنة ٦ م . ولما اعتنقت مملكة اسوينا المسيحية اتخذت اللغة السريانية لغة طقوسها الدينية ، فكانت اوسروينا أول دولة مسيحية في العالم ، ومنها انتشرت المسيحيّة، لا سيمّا نحو الشرق والجنوب إلى وادي الرافدين. ومع المسيحية انتشرت اللغة السريانية، فنبغ كتّاب بارعون أمثال برديصان وافراهاط الحكيم الفارسي ومار افرام ويعقوب السروجي وغيرهم. كما نشأ أدب سرياني رفيع يضاهي أدب اشهر اللغات في العالم. وانتشرت المدارس السريانية في كل بقعة من بلاد الرافدين وسوريا وبلاد فارس. فانحسرت أمامها سائر اللهجات الآرامية التي كانت موجودة آنذاك ، حتى أضحت السريانية لغة الأدب والتخاطب لدى كثير من الشعوب . و توغلت السريانية في أواسط آسيا والهند والتبت ، ووصلت في نهاية القرن السابع الميلادي إلى الصين وبلاد المغول. وامتدت باتجاه الغرب ووصلت إلى وادي النيل فوجد دير قديم للسريان في وادي النطرون في مصر يقع ما بين القاهرة والإسكندرية وهو مبني على أسم مريم العذراء ، وفيه خزانة كتب سريانية كثيرة العدد.

وقد ذكر فيليب حتّي في كتابه : أن أحد المبشرين للمسيحية في كنيسة انطاكيا كان يشكو من عدم استماع الكهنة لمواعظه اليونانية، وأنهم لا يسمعون سوى السريانية الدارجة، التي أخذت تنتشر مع انتشار الديانة المسيحية .

وفي نهاية الحكم الفرثي شهدت بلاد الرافدين تدفق هجرات عربية من قبائل تنوخ، نزلت في الأنبار والحيرة وأطراف الفرات وغربيه ، وقد استطاعت هذه القبائل أن تؤسس لها فيما بعد دولة عرفت بأسم (دولة المناذرة) أو (دولة الحيرة) ، وكان سكانها خليطاً من العرب والآراميين واقوام أخرى من اليهود والفرس , وكان عرب الحيرة الأوائل وثنيون ، الاّ ان الديانة المسيحية انتشرت فيما بعد في عموم الحيرة ، وساعد على انتشارها تنصر بعض ملوكها كالنعمان السائح (٤٠٣- ٤٣١ م) والنعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس(٥٨٥-٦١٣ م) وإياس بن قبيصة الطائي (٦١٣-٦١٨ م) ، فانتشرت الأديرة والكنائس والمدارس في دولة الحيرة ، فاعتنق أهلها المسيحية ، وكانوا يتقنون الآرامية فضلاً عن لغتهم العربية بحكم تنصرهم لأنها لغة الدين المقدسة ، وتأثرت لغتهم بلغة الآراميين ، فتكونت لديهم لغة عربية مشوبة برطنة آرامية . وقد بدت على السنتهم .

وروي ان خالد بن الوليد حين دخل الحيرة سنة ٦٣٣ م سأل رجلا من أهل الحيرة ، وهو عبد المسيح بن بقيلة ، قائلا : أعرب انتم ام نبط ؟، وقد أراد بالنبط الآراميين ، فاجابه ابن بقيلة ، قائلا:نحن نبط استعربنا وعرب استنبطنا.

وربما قد استشكل الامر على خالد وهو ابن العربية عند سماعه لغة القوم ، وهي عربية مشوبة برطنة آرامية ، لذا سأل عبد المسيح هذا السؤال ، وقد جاء جواب عبد المسيح غاية في الوصف والبلاغة، إشارة منه إلى الاختلاط والتمازج الحاصل بين العرب والآراميين النبط ، وتأثر لغتي القوم ببعضهما .

كما اننا نجد شواهد قبور عثر عليها، وهي تعود الى ذلك العهد كتبت بخط آرامي نبطي ، وربما كتب بعضها بلغة آرامية . فشاهد قبر (فهرو) الذي عثر عليه في أم الجمال، من أعمال شرق الأردن ،وهو مربي جذيمة احد ملوك الحيرة، مكتوبًا بلغة آرامية وخط آرامي نبطي.

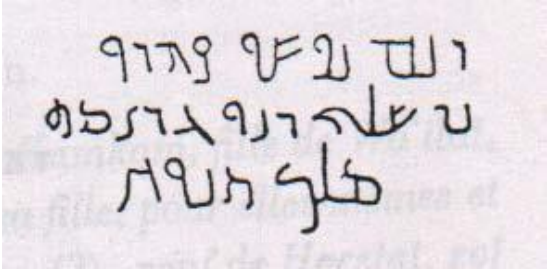

دنه نفشو فهرو

بر شلي ربو جديمت

ملك تنوخ

هذا قبر فهرو، بن شلي مربي جذيمة ، ملك تنوخ

وكذلك نقش النمارة الذي يعود تاريخه الى سنة ٣٢٨م ، وهو شاهد أقيم على قبر أمرىء القيس الأول الملقب بـ(ملك العرب كلهم)، وهو أحد ملوك العرب المناذرة، والذي عثر عليه في قرية النمّارة الواقعة بين دمشق وبصرى، وهو مكتوب بخط آرامي نبطي وبلغة عربية ممزوجة بالسريانية (احدى لهجات الآرامية) .

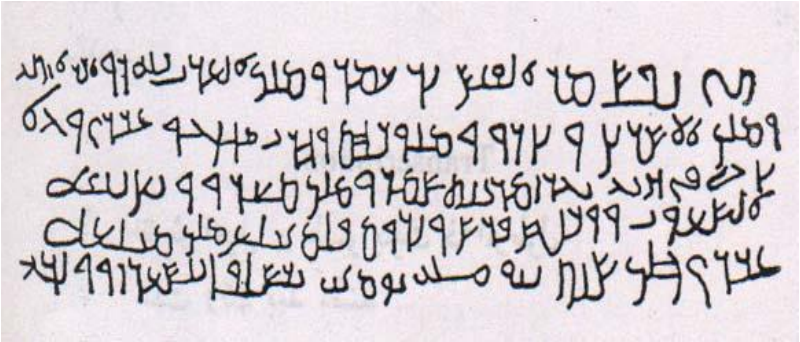

(نقش النه

تي نفس م

وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحج و عكدي وجا

بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبين بنيه

الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده.

ترجمة النقش :

هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج

وملك الاسدين ونزارًا وملوكهم وهزم مذحج بقوته وجاء

بزجي في حبج نجران مدينة شمر وملك معدًا وانزل بين بنيه

(ارض) الشعوب ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

في الحول، هلك سنة ٢٢٣ يوم سبعة من الول (كانون الاول) ليسعد الذي ولده .

اللغة الآرامية في العهد الساساني

اتخذ الساسانيون سنة ٢٢٦ م اللغة الآرامية لغة الإدارة في بلاطهم. كما شاع في عهدهم استعمال كلمات آرامية في الكتابة، ولكنهم عند القراءة كانوا يستخدمون كلمات فهلوية بدلاً عنها، فمثلاً كانوا يكتبون كلمة (ملكا) باللغة الآرامية ، وهي بمعنى ملك ، ولكنهم يقرأونها (شاه) ، وهذا النوع من الكتابة كان يسمى (هوزوارش) أو (زوارش) ، وقد وصل عدد هذا النوع من الكلمات الآرامية التي استعملت في اللغة الفهلوية

إلى أكثر من ألف كلمة. أما في بلاد الساسانيّين فقد كان الخط المستعمل في تلك الحقبة هو الخط الفهلوي وهو مقتبسٌ من الخط الآرامي. كما اكتشف خط في أسيا الوسطى يعرف الآن بأسم (الخط الصفدي)، وهو مقتبس من الخط الآرامي ايضا، ويذكر ان هذا النوع من الخط هو من الخطوط الإيرانية القديمة.

اللغة الآرامية في العصر الإسلامي

وعند انتشار الإسلام في بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين انتشرت اللغة العربية فيها كونها لغة القرآن الكريم ، فانحسرت اللغة الآرامية السريانية وتراجعت تراجعاً شديداً ، وحلت العربية محلها لغة رسمية ومحكية ، وبقيت الآرامية السريانية مستعملة في كنائس الموارنة والروم والسريان والآثوريين والكلدان ومحفوظة عند علمائهم .

وقد حصل مع تمادي الأيام اختلاف في اللفظ للناطقين بالآرامية السريانية فانقسمت إلى لهجتين شرقية وغربية. فالشرقية تعرف بالكلدية الآثورية، وهي لهجة الآثوريين النساطرة والكاثوليك الكلدان ، وهي الأقدم ، أما الغربية فتعرف بالسريانية وهي لهجة الموارنة والسريان الارثوذكس والكاثوليك حيثما وجدوا.

ولابد لنا من الإشارة إلى إسهام السريانية وآدابها في إثراء اللغة العربية وتراثها الفكري والعلمي، لاسيما في العصرين الأموي والعباسي. فقد كان للناطقين بالسريانية دور كبير في رفد الحضارة العربية في مجالات وعلوم شتى ، كالطب والفلسفة والترجمة والفلك وعلوم أخرى ، وقد برزت أسماء سريانية كان لها دور في نقل المعارف والعلوم إلى العربية ، مثل آل بختيشوع ، كبختيشوع بن جبرائيل وجبرائيل بن بختيشوع وابو سعيد عبيد الله حفيد بختيشوع ويوحنا بن بختيشوع بن جبرائيل.

وقد تميز آل بختيشوع في الطب علماً وممارسة، وكانوا يتقنون اليونانية والعربية والفارسية فضلاً عن لغتهم السريانية. فكان جبرائيل طبيباً خاصاً للخليفة العباسي هارون الرشيد ، كما وضع رسالة خاصة في المطعم والمشرب لابنه الخليفة المأمون . أما بختيشوع فقد كتب مصنفات أهمها رسالة في تدبير الأبدان وأخرى في الحجامة، وكان كاتباً في ديوان الخليفة المقتدر .

وكان لأبي سعيد عبيد الله آثار علمية جمة مثل كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر، وكتاب طب الأخلاق، وكتاب مناقب الأطباء، وكتاب نوادر المسائل وغيرها ، أما يوحنا بن بختيشوع فقد نقل كتبا كثيرة من اليونانية والسريانية إلى العربية.

ومن أعلام السريان الذين ساهموا في رفد الحضارة العربية ايضاً آل ما سويه، ومن أشهر أعلامهم أبو يوحنا ماسويه وأبنه أبو زكريا يوحنا بن ما سويه الذي أشتهر بالترجمة والتأليف. ذكر له أبن أبي أصيبعة أثنين وأربعين بين كتاب ومقالة، معظمها في الطب. ويذكر ابن جلجل في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) "ان هارون الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه السرياني ترجمة الكتب القديمة مما وجد في أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم التي فتحها المسلمون، فوضعه أمينا على الترجمة".

كما كان لآل حنين دور عظيم لا يخفى على المعنيين بشؤون التراث والحضارة ، إذ أسهموا اسهاماً كبيراً في نشوء المعرفة وازدهارها وتطويرها ، ومن أشهر أعلام هذه العائلة ، حنين بن إسحاق (٨١٠-٨٧٣م) ، وأبنه أسحق بن حنين وأبن أخته حبيش بن الحسن الأعسم ، فقد نبغ آل حنين في نقل الكتب الطبية بالدرجة الأولى ، ثم كتب الفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها ، وقد ذُكر أن حنين وحده ترجم ولخص وفسر أكثر من مائتي كتاب ومقالة ، ونقل إلى العربية من مؤلفات ابقراط وجالينوس، نذكر منها: أسباب الأمراض،أصناف الحميّات الأمزجة ، التشريح للمتعلمين ، وغيرها.

أما أسحق بن حنين فان ترجماته تربو على الخمسين، فقد نقل إلى العربية من مؤلفات أرسطو كتب الطبيعة، الحروف ، الإلهيات ، النفس والأخلاق ، الكون والفساد ، كما أنه ترجم لأقليدس كتب الأصول والتفسير والنسب والفرضيات والبصريات والتحرير وغيرها من الكتب النافعة .

وترجم حبيش بن الحسن الأعسم لأبقراط كتب العهد، الأجنة، الأهوية ، المياه والبلدان ، ونقل أيضاً كتب جالينوس ، مثل كتاب النبض الكبير ، اختلاف التشريح ، منافع الأعضاء ، المدخل إلى المنطق ، قوى النفس ، وغيرها.

وهناك كثير من اعلام السريان الذين أثروا الحضارة العربية وكان لهم أثر في خدمة الانسانية ، كأيوب الرهاوي، جرجس اسقف العرب ، الحسن بن بهلول ، أبن العبري ، عبد يشوع الصوباي وأخرون.

أما اليوم فان الآرامية الحديثة في بلاد الرافدين تتمثل بالسريانية الدارجة أو لهجة السورث ،وهي لهجة الآثوريين وغالبية الكلدان والسريان ، وهي لاتزال متداولة في الأوساط السريانية . وهناك آراميون آخرون هم الصابئة المندائيون لا يزالون يستخدمون المندائية ، وهي احدى اللهجات الآرامية، في اقامة صلواتهم وشعائرهم الدينية ، ومن أهم كتبهم : الكنزا ربا : أي الكتاب العظيم ، دراشا ديهيا : أي تعاليم يحيى ، القلستا: أي كتاب المدح ، سدرا د نشماثا : أي كتاب النفوس .

في ما تقدم قدمنا دراسة لتاريخ للغة الارامية عبر العصور التاريخية في ضوء المعطيات الاثارية والمصادر التاريخية واوجزنا فيها مراحل ظهور هذه اللغة ومراحل تطورها وانتشارها وتفرع اللهجات منها في بلاد دالرافدين خاصة وفي البلدان المجاورة لها ثم عوامل انحسارها وبقاء بعض لهجاتها المحكية حية الى يومنا هذا .